الأزهر والحياة العامة

مالك والجـــاحظ
فى العصر الحديث
للأستاذ محمود الشرقاوى

يقول الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى فى حديثه مع الرسالة :
« بين أيدينا كل ما ورد عن الرسول من الأحاديث ، وما روى عن الأئمة من الأحكام ، وما أثر عن الفقهاء من الكتب ؛ وفى خزائننا كل ما خلّف العرب وغير العرب من لباب الأدب وعصارة الفكر . ومع هـذا اليسر فى الوسائل وهذه القوة فى الاستعداد لا نرى إلا فراغاً يثير الظنون ويغرى بالأزهر التهم »

ثم يتعجب الشيخ الأكبر كما يتعجب بعده الدكتور زكى مبارك متسائلاً : لماذا لا يظهر فى العصر الحديث مشرّع مثل الإمام مالك أو أديب مثل الجاحظ ... ؟

وهذه هى المسألة التى وعدنا قراء « الرسالة » أن نبحثها فى ختام مقالنا الأول[1]

* * *

صحيح ما يقوله الشيخ الأكبر من توفر ما روى عن الرسول من الأحاديث وما روى عن الأئمة وعن الفقهاء ، وتوفر ما فى خزائننا مما خلف العرب وغير العرب من لباب الأدب وعصارة الفكر . صحيح كل هذا ونحن أميز عن جميع العصور حتى عن عصر مالك وعصر الجاحظ فى توفر هذه المصادر كلها والمراجع كلها والكتب كلها وفى سهولة الوصول إليها والبحث فيها

ولكن توفر هـذه المراجع والمصادر والكتب لا يبرز من بيننا إماماً كمالك ولا أديباً كالجاحظ . وليس من العجب ألا يبرز

ليست الكتب وحدها ولا المراجع ولا الأصول هى التى تنشئ الأديب ولا هى التى تبرز العبقرى ، بل هناك أسباب أخرى يمكن أن نذكر منها البيئة العلمية والوسط الاجتماعى ، ومستوى الحياة الذهنية فى العصر الذى ينشأ فيه العالم أو ينشأ فيه الأديب

فهل نستطيع أن نزعم أن البيئة العلمية التى نشأ فيها مالك والتى تكوّن فيها تفكيره وتم نضوجه العقلى ، أو تلك البيئة التى نشأ فيها الجاحظ ، وتكون فيها تفكيره ، وتم نضوجه الأدبى . هل نستطيع أن نزعم أن هذه البيئة أو تلك شبيهة بما نحن فيه الآن أو قريبة منها ؟ ؟

كانت الحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى عصر مالك والجاحظ تفور بالنشاط بل بالعنف ، وتضطرب بالحياة القوية المتجددة . وكانت الأحـداث السياسية والحربية والاجتماعية تجىء فى كل يوم بجديد . وكانت الأمة الإسلامية أو الأمة العربية فى عصر مالك والجاحظ هى صاحبة السيادة والسلطان المطلق فى العالم كله « عالم ذلك العصر » ، وكانت حضارات الأمم القديمة العريقة وأموالها وآثارها العقلية والأدبية تنحدر كالسيل فى نهر الحياة الإسلامية أو العربية ويملأ ضفافها بالنشاط والحركة والحيوية . وكان المجتمع الإسلامى أو العربى فى عصر مالك والجاحظ يشعر بأنه صاحب السيادة على ما سواه من المجتمعات ، صاحب السيادة الذهنية والعقلية والأدبية . بل لم يكن يجـد أمامه نداً من المجتمعات يمكن أن يقارن به أو يوزن إلى جانبه أو تقام بينه وبينه المفاضلة والترجيح ، لأن الأمة الإسلامية أو العربية كانت لذلك العهد صاحبة السيادة السياسية والحربية وما سواهما من السيادات ولم تكن تجد أمامها من توزن سيادته بسيادتها أو تقام بينها وبينه المفاضلة والترجيح

وفى هذه البيئة وفى ظل هذه السيادة التى يشعر بها المجتمع وتشعر بها الدولة لأنها حقيقة واقعة . نشأ مالك والجاحظ فكانت لهما سيادة الذهن وسيادة الفكر والأدب والفن

وهذه الأشياء كلها : البيئة العلميـة ، والوسط الاجتماعى ، ومستوى الحياة الذهنية ، وشعور المجتمع بالسيادة أو بالهوان ، ومكان الدولة من القوة والضعف ؛ كل أولئك أشياء ليست هينة الشأن فى تكوين الأديب والعالم وفى تبريزه وحدة ذهنه وقيمة إنتاجه .

وبالمقارنة بين هذه الأشياء على عصر مالك والجاحظ وبينها فى مصر والشرق على عصرنا هذا نستطيع أن نضع علماءنا وأدباءنا حيث يكون موضعهم الطبيعى

(١) عدد ٣٠٨ من الرسالة

ولعل من المفيد أن نذكر هنا قول ابن دريد فى مقصورته :

وكل قِرن ناجم فى زمن فهو شبيه زمنٍ فيه بدا

وقد نجم مالك ونجم الجاحظ فى زمن كانت السيادة فيه لدولتهم ودينهم ومجتمعهم فكانوا شبيهين بزمنهم ، ونجم علماؤنا وأدباؤنا فى زمن فهم شبيهون به

ولا عجب فى ذلك ولا غرابة

* * *

ولكنا ننتقل من ذلك إلى مسألة أخرى نلخصها فى هذه الأسئلة وفى الإجابات عليها :

ما هى القيمة الحقيقية لمالك والجاحظ؟ وهل لا نجد فى عصر غير عصريهما من تكون قيمته مثل قيمتهم ؟ وهل لا نجد فى عصرنا هذا من يقرن إليهما ويوزن بميزانهما ؟

أما مالك فهو إمام مشرع نافذ البصيرة والذكاء فى فهم المسائل وفى التشريع ، ولكنا نستطيع أن نجد له نداً بل أنداداً كثيرين فى هذه الصفات كلها . وفى مسائل كثيرة نجد علماء متأخرين يناقشون مذهب مالك أو غيره من المذاهب ويفندون رأيه فى مسألة أو فى مسائل . ثم يقتنع الباحث المنصف بأن رأيهم أرجح من رأى مالك وأن فهمهم لهذه المسألة أو المسائل أدق من فهمه

ونستطيع أن نجد كثيراً من هذا فى مطالعاتنا لعلم الأصول وأن يجده غيرنا كذلك

ونجد فى عصرنا هـذا علماء يناقشون فى مذهب مالك وفى غيره من مذاهب الأئمة ويفندون رأيه فى مسألة أو فى مسائل ، ويكون رأيهم فيها أرجح من رأى مالك ، وفهمهم لها أدق وأصدق من فهمه

فى الأحاديث الدينية التى أذاعها الأستاذ الأكبر ، وفى دروسه التى ألقاها منذ سنين ، وفى أحكامه قبل ذلك فى القضاء آراء ومسائل خرج فيها عن رأى مالك وأبى حنيفة وناقشها وأقنع سامعيه وقارئيه بصواب رأيه على رأيهم . وكان فهمه لهذه المسائل أدق وأصدق من فهم مالك وأبى حنيفة

ونقرأ ونسمع لعلماء معاصرين آراء يخالفون بها هذا وذاك من الأئمة ومن الفحول ، ثم نجد من الإنصاف أن نقرهم وأن نشهد بأنهم أدق فهماً وأصدق رأياً من هـذا وذاك من الأئمة والفحول ولو خالفوا مالكا

ثم نقول بعـد ذلك فى الجاحظ مثل قولنا فى مالك بفارق بسيط ولكنه ضرورى . فإذا أردنا أن نضع الجاحظ وغيره من فحول الأدب القديم حيث يستحقون من تاريخنا الأدبى والثقافى، يجب أن نلاحظ الفرق بين « الأديب » فى العصور القديمة وبين « الأديب » فى عصرنا هذا ، وأن نلاحظ الفرق بين « الأدب » فى تلك العصور وبين الأدب فى عصرنا هذا

فالأدب عند العرب فى عصر الجاحظ وفى غيره من العصور (وإلى عهد قريب) كان أدب حفظ وجمع ورواية . وكان الأديب يوزن قدره ويلحظ مكانه بقدر ما يحفظ من الشعر ، ومن غريب الرواية ، ومن كلام السلف والأعراب ، ومن شعر الشعراء . وكان أكبر ما يمدح به الأديب أن يقال فيه إنه « بحر علم » و « خزانة أدب » وإن صدره « وعى علوم الأوائل والأواخر » إلى غير هذه النعوت التى تدور كلها حول محور الرواية والحفظ والجمع والاستيعاب

فإذا نظرنا إلى الجاحظ وإلى من هو أقل من الجاحظ مكاناً فإنا لا نجد فى عصرنا من يشابهه أو يقاربه ، ولا نريد أن نجده . والأدب والشعر ورواية الغريب التى هى بضاعة الجاحظ وغيره من فحول الأدب السوالف (إذا نظرنا للأدب هذه النظرة) هذه البضاعة لا تساوى شيئاً ، ولا نأسف لأنا لا نجد فى عصرنا من يوزن بالجاحظ فيها . فعندنا خزائن الكتب أرحب وأوسع وأصدق وأيسر من صدر الجاحظ ومن روايته

أما الآن ، فنحن ننظر إلى الأدب على أنه فن قائم على قواعد وأصول ، وعلى أنه أسلوب وفكرة ، أو على أنه أسلوب فقط . نحن ننظر إلى الأدب على أنه شىء من هذا أو هذا كله، أو على أنه شىء غير هذا وذاك . ولكنه مهما يكن ، فليس هو الجمع والحفظ والاستيعاب والرواية للغريب والشعر . فإذا وزنا أدب الجاحظ بهذا الميزان الجديد للأدب ، فقد خف وزنه ولم يبق منفرداً ولا فذاً منقطع النظير والأقران فى عصرنا

فمقدار الثقافة التى كان يتميز بها الجاحظ ونوع هذه الثقافة لا وزن له ولا قيمة فى عصرنا . وتلميذ فى الأزهر أو فى مدرسة